من أجل قراءة تاريخية لألف ليلة وليلة

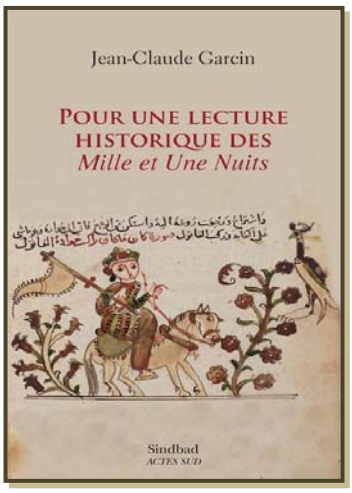

د. أحمد يحيى العامر

باحث سوري - معهد البحوث والدراسات حول العالم العربي والإسلامي
جامعة اكس مارسيليا – فرنسا

بيانات الكتاب

تأليف:
جون كلود قارسان
Jean-Claude Garcin

Pour une lecture historique des Mille et Une Nuits, Paris, Sindbad/Actes sud, 2013, 805 p.

كلمات مفتاحية:
ألف ليلة وليلة، النصوص العربية، التاريخ والأدب، القرون الوسطى

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0047326

المؤرخ جون كلود قارسان وألف ليلة وليلة

جون كلود قارسان (Jean-Claude Garcin) مستشرق فرنسي، كان لي شرف التعرف إليه عن قرب عام ٢٠٠٨ في مدينة اكس أن بروفانس (Aix-en-provence) الفرنسية، عندما كنت أحضِّر لرسالة الماجستير، وكان متقاعدًا في ذلك الوقت، ويعمل في تأليف كتاب ألف ليلة وليلة، واستمرت علاقتنا وتطورت إلى صداقة قوية خلال فترة التحضير للدكتوراه، فقبل -على الرغم من كل التزاماته- متابعة تطور بحثنا في الدكتوراه، تزامن عملنا على أطروحة الدكتوراه مع عمله في تأليف كتابه من أجل قراءة تاريخية لألف ليلة وليلة (*Pour une lecture historique des Mille et Un Nuits*) الذي كنا على اطلاع دائم على تطورات العمل فيه حتى أصبح لنا الشرف أن نكون من أوائل من قرأ هذا الكتاب من خلال نسخة مهداة من قبل جون كلود قارسان (Jean-Claude Garcin) شخصيًا. جهد كبير ومعرفة دقيقة بالتاريخ الإسلامي بشكل عام والتاريخ المملوكي بشكل خاص كانت ظاهرة في هذا الكتاب ليكون واحدًا من أهم الكتب التي ستتداولها الأجيال القادمة من الباحثين كمرجع مهم لأبحاثهم، ولاعتراف المؤرخين والأدباء بمكانة هذا الكتاب كان مرشحًا من بين سبعة كتب للحصول على الجائزة الكبرى الممنوحة من قبل معهد العالم العربي (Institut du monde arabe) في باريس عام ٢٠١٥.

استغرق العمل على هذا الكتاب عشر سنوات ودون أي نية لدراسة هذا الكتاب دراسة أدبية، لكن الاهتمام بهذا الكتاب كان كمادة تاريخية. في البداية اعتمد قارسان (Garcin) لدراسة كتاب ألف ليلة وليلة على نشرية بولاق الصادرة عام ١٨٣٥ باللغة العربية، والتي تتألف من جزأين (١٣٣٠ صفحة تقريبًا، بمقاس5, ٢١/١٢ سم مطبوعة). كان كتابًا فخمًا وغالي الثمن بشكل كبير حيث إن سعره في ذلك الوقت وصل إلى ١٠٠ (قرش). هذا السعر الكبير ليس في متناول عامة الشعب آنذاك. يبدو أن هذا الكتاب لم يكن موجهًا لعامة الشعب. سخر قارسان خبرة ثلاثين عام أمضاها في دراسة وتحليل النصوص العربية من أجل القيام بدراسة دقيقة لحكايات الكتاب وتحديد تاريخها، معتمدًا بذلك على الإشارات الموجودة في النص العربي، والتي تخص هياكل الحكم، السكن، اللباس، أشكال العبادة...إلخ. النتيجة المهمة التي توصل إليها بعد تجميع

الإشارات النصية، هي وجود مرحلتين أو أكثر لكتابة نص القصة.

هذه النتيجة تؤكد ما ذكره رحالة ألماني سيتزن (Seetzen) مرّ بمصر سنة ١٨٠٩ (هو أن أصل المخطوطات التي اعتمدت عليها نشرية بولاق ١٩٣٥ هي نتاج عمل قام به رجل دين (شيخ) بعد سنة ١٧٥٠ . (وعلى الأغلب بين سنة ١٧٦٠ و ١٧٧٠، ولم يذكر الرحالة اسم هذا الشيخ). يذّكر قارسان (Garcin) بطريقة عرض الكتاب قبل صدور نشرة بولاق عام ١٨٣٥ بقوله: كان الكتاب على شكل مخطوطة ضخمة جدًا في أربعة أجزاء منقولة عن مخطوطة غير مؤرخة موجود بعض منها. هذا الكتاب كان بعنوان (ألف ليلة وقصص قديمة). القصص في هذا الكتاب كثيرة، وموجودة وسط الكتاب، من السهل رؤيتها ومعظمها قديمة. ومواضيعهم تهتم بالبلاد العربية من فترة قبل الإسلام إلى القرن الثالث عشر، لكن هذه القصص في غالب الأحيان قصيرة، ولا تملأ أكثر من ١٢ بالمئة من النص المطبوع في هذه النشرية. يجب الإشارة إلى أن العنوان (ألف ليلة وقصص قديمة) اختُصر فيما بعد من قبل الناشر عام ١٨٣٥ إلى (ألف ليلة وليلة).

حاز كتاب (ألف ليلة و قصص قديمة) على اهتمام كبير لسببين الأول: أنه كان يجمع، ويضم مجموعة من القصص أكثر من القصص الموجودة في كتاب (ألف ليلة وليلة) الصادر عن نشرية بولاق ١٨٣٥ . أما السبب الثاني: عندما كتب شيخ القرن الثامن عشر هذا الكتاب ذَكر القصص القديمة لألف ليلة وليلة من بغداد، والتي لم تعد موجودة.

يشير قارسان (Garcin) إلى النجاح الكبير الذي عرفته (ألف ليلة وليلة) في أوربا عندما بدأ المستشرق انطوان قالان (Antoine Galland) بنشر ترجمات لمخطوطة أتى بها من سورية، وحذف منها كل ما يخدش الحياء، وهي مخطوطة محفوظة في المكتبة الوطنية في باريس (Bibliothèque Nationale de Paris)، وحُقِّقَت عام ١٩٨٤، من قبل باحث عراقي اسمه (محسن مهدي). كل الطبعات العربية لألف ليلة وليلة تبدأ فيما يسمى (حكايات قالان) (les contes de Galland). اكتشفوا منذ زمن أن هذه القصص هي قصص من القرن الخامس عشر، لذلك اختار قارسان (Garcin) أن يبدأ تحليله ودراسته بهذه الحكايات. بعد مقارنتها مع نص شيخ القرن الثامن عشر وجد أن الأخير قام بتصليح النص، على الرغم من عدم معرفة من يكون هذا الشيخ إلا أن قارسان (Garcin) استطاع أن يفهم هدفه من كتابة هذا الكتاب.

اعتمد قارسان (Garcin) أيضًا على نشرية لألف ليلة وليلة غير متفق عليها نشرت في برسلو(Breslau) بداية ١٨٢٤ من قبل الألماني مكسميليان افيشت (Maximilien Habicht) تسمى (l'édition de Bresla) (نشرية برسلو) انتقدت هذه النشرية، واعتبرت فيما بعد كنشرية مغلوطة، وغير صحيحة، ولا توافق أي مخطوطة عربية. المستشرق الألماني جمّع القصص، ووضعها في إطار قصة (شهرزاد) التي تروي كل ليلة حكايات للملك من أجل النجاة من الموت. ونظم هذا المستشرق هذه القصص التي أتى بها من المغرب حسب منهج خاص به. مع ذلك كان لهذا العمل جانب إيجابي بالنسبة لقارسان؛ لأنه حافظ من خلاله على النسخ القديمة للّيالي. من خلال مقارنة هذه النشرية مع ما كتبه الشيخ وجد قارسان (Garcin) أن الشيخ واصل إصلاح القصص كما عمل سابقًا. فمن الجانب اللغوي حاول أن يستعمل كلمات كلاسيكية أكثر، بالإضافة إلى أن الشيخ اهتم بإعطاء عبرة لكل قصة، وحذف منها كل ما رأى أنه خارج عن التقاليد والآداب، خاصةً استعمال السحر أو العادات الجنسية الشاذة كاللواط. وبدا لقارسان (Garcin) أن الشيخ هو الذي كتب الخاتمة، والتي يعدها غير تافهة كما يمكن أن يظن. يُقال إن الخاتمة الكلاسيكية المعتادة لألف ليلة وليلة: شهرزاد تنجح بالنجاة من الإعدام من خلال روايتها للحكايات، خاصةً عندما عرفت للملك الأولاد الثلاثة الذين أنجبتهم منه خلال الثلاث سنوات التي أمضتهم معه، فتزوجها الملك .كانت الخاتمة فرصة لشيخ القرن الثامن عشر أن يُظهر (شهرزاد) في صورة الزوجة المثالية التي يراها في نفس الوقت متدينة وحسنة التربية والخلق، وهذه النوعية من الزوجة هي المطلوبة؛ ليكون الثنائي مثالي، وهو عماد المجتمع المستقر الذي يعتمد -بنفس الوقت- على التطبيق المحكم للشريعة، وعلى احترام الفروق الاجتماعية. استطاع قارسان (Garcin) التوصل لفهم الليالي بعيدًا عن القراءة الجنسية التي أعطاها مردروس (Mardrus) للأوربيين من خلال أعظم ترجمة قدمها في أوائل القرن العشرين، وبعيدًا أيضا عن رجال الدين المصريين الذين عارضوا بشدة إعادة نشر ألف ليلة وليلة بحجة التحريض على الرذيلة. في آخر الدراسة التحليلية أكد (قارسان) Garcin على وجود عبرة في نهاية كل قصة، والذي أصبح عادة يمشي عليها شيخ القرن الثامن عشر. بجهد كبير استطاع قارسان Garcin أن يحدد التطور الذي أفرز مجموعة حكايات ألف ليلة وليلة.

لذلك رجع إلى قصص قالان (les contes de Galland) في القرن الخامس عشر، في بداية ألف ليلة وليلة، وبعد دراسة دقيقة لهذه القصص توصل إلى أن المؤلف من دمشق، وأنه عاصر اجتياح المغول لدمشق أوائل القرن الخامس عشر، وعلى ما يبدو أنه تهجر إلى سمرقند مع عائلته في ذلك الوقت. بعد رجوعه إلى دمشق كتب لسكانها على (الأغلب بين ١٤٢٤ / ١٤٣٦) ما كان يعتبره كتاب (ألف ليلة وليلة الجديدة). كان بالتالي هذا الكتاب مميزًا، على الرغم من أنه استوحي من قصص قديمة أو سابقة.

هذا الكاتب لم يتجاهل القصص التي كُتِبَتْ في زمنه في مصر، وسبق أن أشار إليهم بالكتاب، على ما يبدو كانوا بسورية يعرفون ما يكتب بمصر، والعكس صحيح. في البلدين يبدو أن المواضيع القديمة أصبحت مملة بالنسبة للشيخ الذي أراد – بشكل خاص–أن يتخلص من حكايات ألف ليلة وليلة القديمة العائدة إلى زمن العباسيين. لذلك ابتدع الكاتب سيناريوهات عجيبة تظهر من قصة إلى قصة القصر العباسي، وهو ليس بأفضل حالاته. هارون الرشيد يظهر غبيًا، ويقوم بردات فعل غير مدروسة وكثير الشرب للخمر، ووزيره جعفر يظهر كأنه ينتظر قرار إعدامه بكل لحظة، وكيف يحاول تهدئة هارون الرشيد دائمًا، الزوجة الصالحة لهارون الرشيد وُصِفَت كامرأة غيورة ومجرمة، هذا ما سماه قارسان (الكوميدية العباسية) (la Comédie abbasside) التي حاول شيخ القرن الثامن عشر إصلاحها بكل ما يستطيع. بصفة عامة كاتب دمشق قام بالفصل بين القصة والرواية التاريخية، وبفضل ذلك استطاع قارسان (Garcin) أن يميز بين القصة والرواية التاريخية. في الوقت نفسه يبقى الشيخ بعيدًا عن نواب السلطة المملوكية الذين لن يسامحهم عن تخليهم عن سورية للمغول، حيث إنه يعتبر السلطة المملوكية غبية وخطيرة في حين أن ما يهمه هو دراسة الأحاسيس الإنسانية والسلوكيات. لهذا السبب أطلق عليه قارسان اسم (مفكر السلوكيات) (le Moraliste) في القرن الخامس عشر، ولا يقصد بذلك المفكر الذي يعطي الدروس، ولكن الكاتب الذي يهتم بدراسة السلوكيات، كما كان يقال عن (لابرويير) (La Bruyère) في فرنسا في القرن السابع عشر. يرى قارسان (Garcin) أن الشيخ يعكس في أبطاله ما عاشه هو نفسه، التهجير القسري من سوريا الذي أمر به تيمور لنك (Tamerlan)، إحساس الهجرة عبر عنه من خلال أبطاله الذين كانوا في غالب الأحيان في وضعية الغريب.

وفي جانب مهم من تطور إنتاج مثل هذه القصص نتيجة مهمة توصل إليها قارسان (Garcin)، وهي أن الاجتياح العثماني سنة ١٥١٧ وضع حدًا لإنتاج القصص في القرون الوسطى، الفحص الدقيق للإشارات النصية يبين أنه كان هنالك جيل كامل قد مر قبل أن يعود السوريون والمصريون لكتابة القصص، وهو الزمن اللازم لنسيان الصدمة التي تعرضوا لها (دخول العثمانيين إلى سورية ومصر). فقط في الجزء الثاني من القرن السادس عشر لاحظ قارسان(Garcin) ظهور قصص جديدة التي اصطلح على تسميتها (القصص الحديثة) (les contes modernes) في إطار حكم سياسي عثماني مسلَّم به. القصص هذه تمثل ٥٦ بالمئة من الحجم المطبوع لنشرية بولاق.

يبدو لقارسان (Garcin) أن الذين أعادوا إظهار ألف ليلة وليلة اعتمدوا على (ألف ليلة وليلة الجديدة) لكاتب القرن الخامس عشر مما يدل على أنه –حتى في الماضي–نالت هذه القصص (المكتوبة من مؤرخ القرن الخامس عشر) على تقدير في سورية ومصر. وقيمة هذه القصص هي وراء نجاح ترجمة قالان (Galland) أيضًا. بالتأكيد فإن ترجمة قالان (Galland) كانت تندرج ضمن ظاهرة (اكتشاف الشرق) (découverte de l'Orient) لكن لو كانت هذه القصص غير جيدة، وغير ذات قيمة بالتأكيد، لكان عدد قراء قالون أقل مما هو عليه. على كل حال، من خلال ما قدمه قارسان(Garcin) نستطيع أن نرى بوضوح أكثر ما يسميه (قصص حديثة لألف ليلة وليلة).

القصص الحديثة تهتم بمواضيع مختلفة وجديدة بالنسبة للقصص القديمة. الشيء المهم جدًا، والذي يخالف ظاهريًا تعاليم كاتب القرن الخامس عشر، وهي ثلاثة قصص كبيرة حول السياسة، رجع الكاتب من خلالهن إلى كتابة التاريخ الذي هو الآن تاريخ الدولة العثمانية، ولكن ليس بمفهوم الرواية التاريخية المتعارف عليها الآن، فأبطال هذه القصص لا يحملون أسماء سلاطين ووزراء حقيقيين، في غالب الأحيان كانوا كخلطة عُملت من شخصيات متعددة، لكن في هذه القصص دائمًا (مفتاح) (une clé) يسير بالقارئ إلى ما يجب أن يفهمه وهو معنى غير مخفي، ومن جهة أخرى اعتنى الكتاب في قصصهم بالحديث حول البطولات العسكرية أو المغامرات العاطفية، هذه القصص تحمل وجهين الأول: يتعلق بجانب الاستمتاع، وترفيه النفس من خلال الحديث عن معارك مشوقة، أو قصص حب غرامية، أما الوجه الثاني: يتعلق باستخلاص درس من القصة والاتعاظ بهذا الدرس، وحسب قارسان (Garcin) قلّ إنتاج القصص منذ أوائل القرن الثامن عشر.

الكُتَّاب العرب لم يعودوا يهتمون بمصير الدولة العثمانية، لذلك فالواقع السياسي في الولايات كان موضوعًا لقصص قصيرة، وفي بعض الأحيان هزلية. نجد أيضًا قصص صغيرة ومختزلة، وعلى الأغلب كانت ساخرة، لكن الشكل الأدبي للقصة الحديثة لألف ليلة وليلة قد ولى. بعض الكتاب اعترضوا حتى على موضوع (المهاجر البائس) فأصبحوا يقدموا (الهجرة) (l'exil) على أنها فرصة لعمل ثروة في بلدان جديدة أو لعمل الموبقات في مدينة كبيرة لا يعرفهم فيها أحد. على أثر هذا التطور يجب وضع قرار الشيخ بكتابة قصصه (التي هي بشكل عام جيدة وسابقة ببعض الشيء لوقته)، وكأنه شعر أن في زمنه إنتاج القصص الجيدة–والتي لها قيمة– توقف ولم يعدّ موجودًا. مخطوطة رينهارت (le manuscrit Reinhart) المحفوظة في ستراسبورغ المنسوخة عام ١٨٣١، تؤكد بشكل ما حكم أو رأي شيخ القرن الثامن عشر.

وجد قارسان (Garcin) بعد متابعة وتحليل المخطوطة الذي قام به أبو بكر الشرايبي بتحقيقها عام ١٩٩٦ أن فيها

قصصًا خفيفةً تحتوي على خيال عجيب، ويشد الانتباه، ويذكرونا بالروايات الشعبية الكبيرة أو سِيَر القرن السادس عشر والسابع عشر، لكننا نحن بعيدون عن الأشكال الأدبية لحكايات ألف ليلة وليلة القديمة، وكأن الكُتَّاب بعد منتصف القرن الثامن عشر أرادوا أن يتحرروا من هذا الشكل الأدبي، إذن قام قارسان (Garcin) بدراسة تحليلية نقدية لعمل شيخ القرن الثامن عشر، فمكننا من معرفة تاريخ كتابة ألف ليلة وليلة، والذي كان غائبًا عنا، ولم يستطع أحد التوصل إليه أو الاهتمام به قبل قارسان (Garcin). فمن المهم جدًا معرفة في أي قرن كُتِبَت القصة أو الحكاية؛ لنفهم معناها، ونستمتع بهذا المعنى، والمهم أيضًا هو كشف قارسان (Garcin) لمشروع شيخ القرن الثامن عشر لكتابة ألف ليلة وليلة الذي كنا نجهله تماما. فكانت الإفادة كبيرة من هذا العمل الضخم بالنسبة للمؤرخين، وستكون أكبر للمختصين في ألف ليلة وليلة في حال تمَّت مراجعة معلوماتهم على ضوء الاكتشافات الجديدة المقدمة في هذا الكتاب.

في النهاية؛ الكتاب ضخم حوالي (٨٠٠) صفحة كمٌّ هائلٌ من المصادر والمراجع بلغات متعددة، هوامش وحواشي لم تترك صغيرة ولا كبيرة إلا وأعطت لها تفسيرًا، حقائق مهمة تُعرض لأول مرة، وتقدم إضافة حقيقية في مجال التاريخ والأدب، دقة وخبرة يتجاوز عمرها الثلاثين سنة في التعامل مع النصوص العربية، كل ذلك يجتمع في كتاب عنوانه من أجل قراءة تاريخية لألف ليلة وليلة (Pour une lecture historique des Mille et une nuits)، ولمؤرخ استحق الشهرة العالمية هو؛ جون كلود قارسان (Jean-Claude Garcin).